سنية في بغداد « وأوصال مفككة تسودها الشحناء والبغضاء ، والشعوب هي الضحية ، والوطن هو الثمن » .

ثم توسع الافرنج بسهولة وسرعة وكأنهم في نزهة ، لكنها نزهة دامية ، اذ تركوا وراءهم في معظم المدن التي دخلوها وعبروها جثث عشرات — بل مئات — الالاف من الضحايا ، وأنهارا من الدماء . وبينما كانوا يتوسعون من انطاكية الى شيزر ومصرين وحارم والباره ومعرة النعمان ، كان الفاطميون في القاهرة يتصلون بالافرنج يحرضونهم على احتلال بلاد الشام على امل اقتسام المنطقة معهم !! ثم وخلال خمسة أشهر احتل الافرنج المنطقة من نهر العاصي ومصياف وبعرين وسهل البقاع الى حصن الاكراد ، ثم طرابلس واللاذقية وطرطوس وجبله ، ثم بيروت وصرفند وصور وعكا وحيفا وأرسوف وقيسارية ، ثم اللد والرملة . واثناء ذلك كان امراء شيزر ومصياف وحمص وطرابلس وبيروت وصور وعكا يتعاونون مع الافرنج ويمدونهم بالاغذية والاموال والادلاء !! ومع ذلك فان الشعب قاوم ببسالة في حلب وصيدا ومعرة النعمان وعرقة . وفي ٧ حزيران ١٠٩٩ وصل الافرنج الى بيت المقدس (وهو اليوم نفسه الذي سقطت فيه القدس في أيدي الاسرائيليين عام ١٩٦٧) وحاصروها الى ان سقطت في ١٤ تموز ، فأقاموا فيها مجزرة بشعة استمرت اسبوعا من التقتيل الجماعي . ويقول المؤرخ ابو المحاسن : « هذا كله وعسكر مصر لم يحضر » ... ولا تحرك الخليفة في بغداد !

ثم استولى الافرنج على يافا ونابلس وبيسان وطبريا والناصرة ، ثم شرعوا بتحقيق هدفين استراتيجيين : تمكين اتصالهم البحري باوروبا ، وقطع صلة فلسطين ببقية الوطن العربي . ثم استولوا على بقية الجليل وتوغلوا في الجولان واقتربوا من دمشق ، ثم فتحوا قيسارية وارسوف وتابعوا مذابحهم الرهيبة ... ثم احتلوا طرابلس احتلالا فعليا بعد حصار طويل ومذبحة اخرى واحرقوا فيها مكتبة بني عمار التي كانت من اعظم مكتبات العالم . وبعد ربع قرن من النضال استسلمت صور ، وبعد سلسلة محاولات استولوا عنوة على صيدا ... وأيضا وأيضا والفاطميون في القاهرة ، والعباسيون في بغداد ، وملك دمشق، يتفرجون . ثم احتل الافرنج وادي عربه والشوبك والعقبه ، وزحفوا على سيناء واخترقوها من غزة حتى العريش ثم الفرما في ربيع ١١١٨ م ثم الى جنوبي بحيرة المنزلة . واثناء ذلك شن امير الموصل[٥] حملة كبيرة على الافرنج انتهت بالفشل بسبب رفض ملك حلب وملك دمشق مساندته ، بل واتصال ملك دمشق بالافرنج سرا !

وتوالت حملات الافرنج على مصر[٦] وتمكن عماد الدين زنكي من قيادة حركة توحيدية عربية تستهدف التحرير ، وتوفي فخلفه ابنه نور الدين الذي سار على خط أبيه يعاونه ثم يخلفه صلاح الدين الايوبي ... ويذكر المؤرخون القدامى انه حين اتحدت مصر والشام « ايقن الافرنج الهلاك ». ويتوالى الصراع على مدار عشرات السنين والاجيال ، الى ان قرر صلاح الدين الانتقال من حروب الاستنزاف الى الحرب الفاصلة اذ « العمر قصير والاجل غير مأمون » وهو الراغب بأن يتم تحرير القدس قبل الوفاة . وهكذا بعث صلاح الدين يحث جميع الاقاليم التي كان قد وحدها على الكفاح والنضال ، وعبأ جيشا عظيما ، وقرر ان يلاقي الافرنج على هضاب حطين المجدبة ، بينما كان الافرنج يعسكرون في صفورية « حيث الحياة الوفيرة والظلال الوارفة » ، ولهذا عمل صلاح الدين على استدراج الافرنج الى حطين مختارا المكان والزمان المناسبين ليوقعهم في الفخ. ونجح البطل بخطته الاستراتيجية وتلاقى الجمعان عند هضاب حطين عشية ١٣ تموز ١١٨٧، وانتصر صلاح الدين ، ووصف العماد الاصفهاني نتيجة المعركة قائلا « من شاهد القتلى قال ما هنالك أسير ، ومن شاهد الاسرى قال ما هنالك قتيل »! ثم حرر صلاح الدين عكا والناصرة وصفوريه وقيساريه وحيفا وارسوف ونابلس وسبسطيه الى اخره ... الى اخره . وفي ٢٠ ايلول ١١٨٧ بلغ القدس وراح يهيىء لاقتحام أسوارها ، ورفض الافرنج التسليم ، وكانت معركة قاسية انتصر فيها جيش صلاح الدين ، ودخل القدس ، وعلى عكس ما فعله الافرنج قبل ٩٠ عاما عند احتلالهم للقدس من مجازر وتقتيل رهيب ، انتهج صلاح الدين سياسة الرحمة والعطف والسماحة ، وكفل الامن والسلامة وحرية العبادة للجميع .